تأثير مكة المكرمة في كتابات مفكري النهضة (مثال الكواكبي في أم القرى)

وجيه كوثراني *

مدخل عام:

بفعل الدور الذي كان لمكة بسبب إشعاعها الديني وجاذبية الحج إليها، ولكون الحج فريضة دينية، ومناسبة لملتقى ثقافي واجتماعي واقتصادي عالمي اكتسب المكان كل أبعاد الزمن التاريخي في تقاطعة مع المكان فكان أن تقاطعت في مكة وسائر حركة التاريخ في مستوياتها الثلاثة: مستوى الثبات والديمومة في الجغرافية التاريخية ومستوى التطور الهادئ والبطيء في البُنَى الحضارية والثقافية، ومستوى التغير السريع في السياسات والأحداث.

في حيز هذا التقاطع لمستويات الزمن الثلاثة يتجلى أولاً بعد الثبات والاستقرار والديمومة، فيقرأ المؤرخ في جغرافية مكة التاريخية ترابط حلقات المكان المقدس منذ السيرة الإبراهيمية الأولى إلى إعادة السيرة مجددة في الرسالة النبوية الإسلامية، فكانت تطيب "المجاورة" للعديد ممن قصد الحج والعمرة للمكان المقدس، وكأنّ في المجاورة محاولة بشرية دائمة لتثبيت المسار الزمني في ديمومة من الذكرى التي تحيا في ذاكرة مجاور شاء أن يوحد الجغرافية والتاريخ أي أن يجمع المسافات الزمنية والمكانية الكبرى والطويلة في مدى عمر قصير يجري فيه التأمل والانفلات من عبء الدنيا ورتابة التاريخ القصير.

في حيز ذاك التقاطع أيضاً يتجلى بعد التطور والتحول في نطاق ما أسماه ابن خلدون "طبائع العمران" في الاجتماع البشري الذي هو "علم التاريخ" فتقرأ على مدار المراحل التاريخية وتقلباتها مسار القوافل والطرقات وألوان البشر وسلعهم وأفكارهم وعاداتهم وألسنتهم كل عام، فيدخل الحج والعمرة أدب الرحلات من باب المعرفة التاريخية وحوار الحضارات والثقافات وينشأ بذلك أدب كبير وجم عن عالم الشعوب والأقوام والقبائل والأسر والفرق والمذاهب والطوائف والاقتصاديات وعلاقات التبادل. إنّه البعد الحضاري في الزمن التاريخي، وهو البعد الذي أطلق عليه الكواكبي تعبير "الإسلامية" في كتاباته وإذا كان لهذا التعبير من مبرر اصطلاحي لدى الكواكبي فهو للإشارة إلى نعت التاريخ والحضارة والجغرافية البشرية حيث عمّ الإسلام، لا إلى نعت الدين بذاته كجوهر مطلق. ولعل الفائدة الدلالية لإصرار الكواكبي على استخدام الإسلامية هو تحميل هذا المصطلح دلالات النسبية في تعامله مع المتغير في الزمن التاريخي للمكان، وهو ما تشير إليه بشفافية اختلاف آراء علماء المسلمين في اجتماعهم في "أم القرى" كما سنرى بشيء من

التفصيل.

أما البعد الثالث في ذاك الزمن التاريخي للمكان فهو البعد الحدثي والسياسي وهو بعد - كما يراه المؤرخون المعاصرون بعد- متقلب وسريع، يتمثل في تغير الملك والإمارة والسلطة والسياسات. وكان ابن خلدون قد سماه "التاريخ في ظاهره" أو هو ظاهرة التاريخ وليس جوهره أو باطنه.

في حيز هذا التقاطع ذي الأبعاد الثلاثة للمكان: الثابت في القدسية، والمتحول في الحضارة والتاريخ، والمتغير بسرعة في وتيرة السياسات والسلطات، تقوم الكتابة التي هي قراءة أولاً- وقبل كل شيء بمهمتين مترابطتين: مهمة الوصف والتحليل والفهم عملاً بالمفهوم القرآني (اقرأ)، (وعلم الإنسان ما لم يعلم)... (وقل رب زدني علماً)... ثم مهمة الإصلاح والاستشراف المستقبلي تأسيساً على رسالة "النذير" ودوره في تاريخ الشعوب والأمم التي تصاب بالوهن والضعف، فتصبح عملية النهضة أو الاستنهاض واجباً ومشروعاً حتميا في حاضر الأمة ومن أجل مستقبلها، وكما وعى ذلك كتاب النهضة، وبينهم عبد الرحمن الكواكبي.

ومن هذا المنطلق والإطار يمكن قراءة الكواكبي في "أم القرى" الصادر في بور سعيد(في مصر) في مطلع القرن الرابع للهجرة(1316هـ 1898م).

يلجأ الكواكبي إلى المقدس في اختياره للمكان ليجعل من المقدس "هداية" وليس سياسة بحتة، وكما هو حال الحزب أو الفرقة أو السلطان، في استقواء هؤلاء بالمقدس، وكما كان شأن من عمل بنصيحة عهد أردشير قديماً أو شأن من استخدم الإسلام في الحزبيات السياسية المعاصرة اليوم. ثم يستحضر التجربة التاريخية والحضارة الإسلامية كما هي معيشة ومعبر عنها في الوعي والخطاب لدى المسلمين وعند تياراتهم واتجاهاتهم وأفكارهم وفرقهم وعلمائهم، فيستخدم الكواكبي -كما أسلفنا – تعبير "الإسلامية" ليشدّ د على معنى "المعرفة النسبية" التي تحتمل الاختلاف بين الآراء داخل كل حضارة. ثم يستخدم الجغرافية – السياسية الإقليمية للبلاد العربية والإسلامية، فيشير إلى محاورها ومراكز تأثيرها في القرار، وكما يتصور صيغتها في "جامعة إسلامية" وقبل ذلك في "جمعية" تضم في إطارها النخب والطاقات والكفاءات في العالم الإسلامي، وهو في هذا الطرح يثير إشكالية مهمة وجديدة لا تزال مسار أخذ ورد هي إشكالية علاقة العالم أو المثقف بالسياسة وبالسياسي.

إنّ نص الكواكبي قي مقدمة كتاب "أم القرى" حيث يقدم نفسه باسم الرحالة المتكنى "بالسيد الفراتي" ينطق بهذه الأهداف والمعاني. على أنّ أسلوب الصياغة يقترب من الواقعية لدرجة يعتقد معه القارئ أنّ مباحث الكتاب هي مداخلات ومناقشات حية قدمها المشاركون في الاجتماع الذي دعا إليه السيد الفراتي في دار استأجرها كما يقول في حي متطرف في مكة, وإمعاناً في جعل القارئ يعيش هذه الواقعية يقول: "إنه استأجرها باسم بواب داغستاني روسي لتكون مصونة من التعرض، رعاية للاحتياط" ص(235).

وسواء كان هذا الاجتماع ومذكراته هي من تأليف الكواكبي وتصوراته، عندما كتب مخطوطته وهو في حلب (كما يرجح الباحثون) أو كان قد جرى في مكة فعلاً- كما توحي:واقعية الوصف فإنّ النص يملك دلالات واقعية لارتباطه الشديد بما كان يتطارح ويتداول بين الكتاب وأهل الرأي في العالم الإسلامي في تحليل أسباب ضعف المسلمين. والكواكبي يشير إلى اطلاعه على تلك الأطروحات والأفكار والاستفادة منها.

في هذه الدراسة نحاول أن نستعيد تلك الأفكار والاجتهادات على لسان أصحابها المختلفين والمتنوعين لأنّ العديد منها لا يزال يملك راهنية في وصف أحوال المسلمين اليوم وتحديد أسباب تقهقرهم وفتورهم، على أنّ اللافت في تحميل الكواكبي أفكاراً معينة لكل مشارك أنّه يأخذ بالاعتبار خصوصيات الانتماء القطري والتكوين الثقافي والبيئي لدى كل متكلم في الاجتماع، ففي هذا النقل أو التصور محاولة للتعبير عن الاختلاف في تحليل وتعليل مظاهر الضعف لدى المسلمين، لكن الملاحظ أنّ هذا الاختلاف يبدو في الصياغة ثراء في المعالجة وفي الرؤى وكما يبدو ذلك في مداخلات المكي والمصري والهندي والتركي والمدني والرومي وغيرهم، كما أنّه يبدو تكاملاً- استراتيجياً ولاسيما عندما يتصور الكواكبي توزعاً للصلاحيات والسلطات لدى شعوب العالم الإسلامي في صيغة "الجامعة الإسلامية".

وعلى كل حال يكمن في هذا التصور لاستراتيجيات العمل الثقافي والسياسي موقف إيجابي من ظاهرة التنوع والتعدد التي يزخر بها العالم الإسلامي والعالم على وجه الإجمال، والتي يحاول الكواكبي أن يؤطرها في جمعية هدفها استنهاض حال المسلمين ويحملها اسم "أم القرى" المدينة التي حملت بجدارة عالمية التاريخ، عندما كان المسلمون يحملون مشروع "العولمة" في العصور الوسطى، ويعيشون حالة التعدد والتنوع والانفتاح على حضارات العالم آنذاك، وعندما كانت "الإسلامية" كما يراها الكواكبي في "أم القرى" و"طبائع الاستبداد" "مؤسسة" – كما يقول على أصول الإدارة الديمقراطية، أي "العمومية" لا على "الاستبداد".

انطلاقاً من هذا المدخل العام لموضوعنا يمكن أن نختار جملة من الأفكار الأساسية التي حملها كتاب "أم القرى" لنعيد قراءتها بشيء من التفكر والتأويل وبعد مرور قرن ونيف عليها، هذه الأخيرة تتوزع في المعاجلة على مداخلات يتقدم بها المجتمعون وهم ثلاثة وعشرون عضواً، بما فيهم الكواكبي الملقب بالسيد الفراتي الذي أخذ على عاتقه توجيه الدعوة وتحضير الاجتماع في مكة، وكتابة محاضر الاجتماعات وتحريرها، وهم وفقاً للتعداد الوارد في النص:

الفاضل الشامي، البليغ القدسي، الكامل الإسكندري، العلاّمة المصري، المحدث اليمني، الحافظ البصري، العالم النجدي، المحقق المدني، الأستاذ المكي، الحكيم التونسي، المرشد الفاسي، السعيد الإنكليزي، المولى الرومي، الرياضي الكردي، المجتهد التبريزي، العارف التتاري، الخطيب القازاني، المدقق التركي، الفقيه الأفغاني، الصاحب الهندي،

الشيخ السندي، الإمام الضني.

أما الأفكار الرئيسة التي تستوقف في المعالجة، والتي لا تزال تملك في الراهن دلالات للنقاش الدائر حول معنى النهضة الإسلامية وفي طبيعة مسارها ومشكلاتها وما اعتراضها ويعترضها من معوقات، فتدور حول العناوين التالية:

1 – في الإطار العام والمنهج ومقاربة الموضوع.

2 – في تفسير أسباب ما سماه المجتمعون في أم القرى: الضعف والخلل ثم أجمعوا على تعبير "الفتور العام"، ليجعلوا من حالة المسلمين، حالة قابلة للشفاء والتصحيح والتجاوز، والأسباب تتوزع على أنواع دينية وأخلاقية واجتماعية وسياسية.

3 – في إعادة النظر بالرؤى والمواقف واقتراح التوجهات وصيغ العمل في مجال الدين والعلم والسياسة.

1 – في الإطار العام والمنهج ومقاربة الموضوع في "أم القرى"

على لسان الرئيس الذي يختاره الكواكبي مكيًّا ويحمل لقب "الأستاذ المكي" يأتي تعيين المنهج، بالدعوة إلى ثلاثة أمور يدعى المجتمعون لها واستقراؤها اليوم كما يلي:

أ – وعي التقهقر التاريخي للأمم الإسلامية منذ ألف عام (ص239). وهذا يعني دعوة للحفر في الجذور التاريخية لمشكلة اليوم، كما أنه ينبئ عن استبطان منهج تاريخي يرى في الضعف ظاهرة لها أسبابها التي يمكن عقلها في التاريخ، ويرى في الإرادة والعقل الإنسانيين قدرة وإمكانية تصحيح من أجل غاية أفضل وأمثل في مسار التاريخ.

ب – إدراك حالة التفوق الذي حققه الغرب في العلوم والفنون(ص139) وفي هذه الدعوة لمعرفة الآخر موقفٌ داعٍ للدراسة التاريخية المقارنة، حيث لا يمكن فهم أي جزء من تاريخ منطقة إلّا بربطه بتاريخ أعم وأشمل هو التاريخ العالمي.

ج – التنبيه إلى:حالة الشلل التي أصيبت بها أطراف المملكة الإسلامية وإلى اقتراب الخطر من القلب، ويعني بالقلب "جزيرة العرب" وخلف هذا التنبيه يكمن وعي سياسي نقدي، ومحاولة استشراف مستقبلي للاحتمالات التاريخية.

من أين تكون البداية؟

يعترف الرئيس بأن المفكرين والكُتَّاب في العالم الإسلامي "بحثوا في بيان الحالة الحاضرة وبيان سبب الخلل الذي هو الجهل" كما أنهم أنذروا الأمة من سوء العاقبة، ووجهوا اللوم والتبعة على الأمراء والعلماء والعامة لتقاعدهم. ولكنه يضيف أنّ هذا لا يكفي(ص140) أولا بد من توجهٍ آخرَ للعمل، غير الكتابة المفردة والقول المنفرد والمتفرق والمؤقت. يطمح أن يكون البحث هذه المرة ومنذ البداية جامعاً ومنظماً ودائماً. ولكي يكون جامعاً يدعو الرئيس المجتمعين "أن يتركوا جانباً اختلاف المذاهب التي هم

متبعوها تقليداً(ص141) ويضيف: "فعلى هذا لا أرى من مانع أن نترك النقول المتخالفة، خصوصاً منها المتعلق بالبعض القليل من الأصول، ونجتمع على الرجوع إلى ما نفهمه من النصوص"(ص242).

ولكي يكون البحث الجماعي ناجحاً ومفيداً لا- بد من الالتزام بآداب البحث والمناظرة، وهو إذ يذكر المجتمعين بتعريف لها يقول: "ألا- وهو عدم الإصرار على الرأي الذاتي وعدم الانتصار له، واعتبار أن ما يقوله كل منا إن هو إلاّ- خاطر سنح له، فربما كان صواباً أو خطأ، وربما كان مغايراً لما هو نفسه عليه اعتقاداً أو عملاً، وهو إنّما يورده في الظاهر معتمداً عليه، وفي الحقيقة مستشكلاً أو مستثبتاً أو مستطلعاً رأي الغير. وبناءً على ذلك فما أحد منا ملزمٌ برأي يبديه، ولا هو ملوم عليه، وله أن يعدل أو يرجع إلى ضده؛ لأننا إنّما نحن باحثون لا متناظرون"(ص248). هذا ولكي يكون البحث منظماً أيضاً وذا أثر مستمر وديمومة يدعو الرئيس إلى تأطير البحث والبحوث اللاحقة في جمعية، أوفي جمعيات، لكن لا- يبقى البحث مشروعاً فردياً، يقوم مع الفرد ويزول بزواله ذلك أن الجمعيات المنتظمة –كما يقول– يتسنى لها الثبات على مشروعها عمراً طويلاً يفي بما لا يفي به عمر الواحد الفرد، وهذا هو سر ما ورد في الأثر من أنّ يد الله مع الجماعة، وهذا هو سرّ كون الجمعيات تقوم بالنظام وتأتي بالعجائب، وهذا هو سر نشأة الأمم الغربية، وهذا هو سر النجاح في كل الأعمال المهمة(ص247).

إذن هكذا تكون البداية، وكما يمارسها المجتمعون في موسم الحج في أم القرى، تأسيس جمعية بدايتها البحث الجماعي كما يتصوره الكواكبي، ومجرياتها ومساراتها جمعيات ومباحث في كل عواصم العالم الإسلامي.

يقول الرئيس: "ومن المأمول أن تكون الحكومات الإسلامية راضية بهذه الجمعية، حامية لها، ولو بعد حين؛ لأن وظيفتها الأساسية أن تنهض بالأمة من وهدة الجهل، وترقى بها في معارج المعارف، متباعدة عن كل صبغة سياسية" ص(299). وفي مكان آخر وفي سياق الدعوة لتشكيل لجنة لصياغة قانون الجمعية يقول: "وإنّي أرى أن نفوض للجنة منا من الذين سبق لهم دخول جمعيات علمية أو الذين لهم وقوف على مباني الجمعيات القانونية لاسيما الغربية المعروفة باسم أكاديميات لتنظم لنا هذه اللجنة سانحة قانون(..)(ص291). وفي قانون الجمعية المقترح ورد: "أنّ الجمعية لا تتداخل في الشؤون السياسية مطلقاً، فيما عدا إرشادات وإخطارات بمسائل أصول التعليم وتعميمه."

إذن، ليست الجمعية، وهي الإطار الذي يجتمع فيه المؤتمرون أو المنتدبون، حزباً سياسياً كما يؤكد ذلك الكواكبي والمتداخلون في أكثر من مكان. على أنّ السياسة بمعناها العام وبما هي تفكير في شؤون الدنيا وكيفية تدبرها تتجلى في كل حنايا النص ومبانيه ومعانيه. إذن ما هي السياسة المستبعدة؟ يبدو أنّ الكواكبي وشخصياته في الجمعية المزمع إنشاؤها يستبعدون السياسة اليومية أو العمل السياسي بما هو شأن سلطوي في حكومة، أوفي حزب يتطلع إلى السلطة. أمّا الجمعية في منظور الكواكبي فهي أشبه بجمعية علمية

تطمح أن ترشد السياسات الحكومية بأبحاثها وبرامجها ونشاط مؤسساتها التعليمية والتربوية والثقافية. وهذا ما تتضح وتشي به المداخلات في أم القرى في مقاربتها للموضوعات. ويبقى على كل حال الإشكال العائق بين السياسة والدين والعلم، أو بين المثقف والسياسي إشكالا قائماً على المستويين المعرفي والأيديولوجي حتى اليوم، وكما سنرى في الحوار الذي جرى بين "الصاحب الهندي والأمير" في كتاب أم القرى.

2 – فرضيات في ذكر أسباب "الفتور العام" لدى المسلمين.

- **فرضية العقيدة الجبرية وحدودها:**

اللافت في معرض الحوار الذي يقدمه الكواكبي في الاجتماعات الأولى المنعقدة في "أم القرى" أن وصف الحالة الإسلامية وتحديد أسباب الفتور فيها يتوزعان على المجتمعين في صيغة وجهات نظر مختلة، هي أشبه بفرضيات بحث تحتاج إلى برهان أو نقاش، أوهي حوافز تستثير التفكير في كل أبعاد الظاهرة لكي تتكامل معرفة الأسباب المولدة لها.

يبدأ الكواكبي على لسان "الفاضل الشامي" بإطلاق فرضية أولى في تعيين أسباب الفتور وذلك بالقول: "إن منشأه(أي الفتور) هو بعض القواعد الإعتقادية والأخلاقية مثل العقيدة الجبرية والتزهيدية(..) ومثل الحث على الزهد في الدنيا والقناعة باليسير والتباعد عن الزينة وعن الإقدام على عظام الأمور، وكالترغيب في أن يعيش المسلم كميت قبل أن يموت"(ص249).

ولكي لا يقع الكواكبي في السببية الأحادية، يحمل "البليغ القدسي" بعدا وظيفيًّا اجتماعياً وسيكولوجياً لظاهرة الجبرية والزهد في الإسلام وفي كل الديانات بقوله: "إن هذه الأصول الجبرية والتزهيدية الممتزجة بعقائد الأمة(...) موجودة في كل الديانات، لتعدّل من شره الطبيعة البشرية في طلب الغايات، وتدفعها إلى التوسط في الأمور، ولتكون من جهة أخرى تسلية للعاجزين وتنفيساً عن المقهورين البائسين" (ص249).

هذا ونلاحظ في أقوال "البليغ القدسي" منهجاً جدلياً مركباً في فهمه ظاهرة الزهد والجبرية، إذ يقلب الظاهرة على عدة أوجه، فيرى ما فيها من وظائف وغايات إيجابية من جهة، وما فيها من شطط سلبي من جهة أخرى، يقول: إذا تتبعنا ما ورد في التعاليم الإسلامية حاثاً على الزهد، نجده موجهاً إلى الترغيب بالأثر العام، أي بتحويل المسلم ثمرة سعيه للمنفعة العمومية دون خصوص نفسه(ص250).

- **فرضية الحكم المطلق وغياب الحريات وغرق الحكام بالنزاعات الداخلية:**

هذا وينهي "البليغ القدسي" مداخلته في تحبيذ فرضية أخرى لتفسير الفتور، فيقول: "أمّا عندي فيُخيَّل إليَّ أن سبب الفتور تحول نوع السياسية الإسلامية، حيث كانت نيابية اشتراكية، أي ديمقراطية تماماً، فصارت بعد الراشدين بسبب تمادي المحاربات الداخلية

ملكية ثم صارت أشبه المطلقة"(ص250).

وهنا يتدخل "الحكيم التونسي" ليشدد على دور أخلاقيات الأمراء في هذا الفتور لا على طبيعة الحكم المطلق، فيشير إلى أقوامٍ – مثل الجرمان – "وجدوا في حكومات مطلقة وفي اختلافات مذهبية وفي انقسامات إلى طوائف سياسية، وفي حروب مستمرة، ولم يشملهم الفتور بوجه عام"(ص25).

ويرد "المولى الرومي" على هذه الفرضية بالقول بأنّ الأمراء هم من هذه الأمة، ويذكر بالقول المأثور: **"كما تكونوا يُوَلَّ عليكم"** ويقترح فرضية أخرى تتعلق بمسؤولية الأمة والحكام معاً عن فقدان الحرية: "إن البلية فقدنا الحرية" ويفند فروع الحرية فيرى أن زمن فروع الحرية تساوي الحقوق ومحاسبة الحكام، باعتبار أنهم وكلاء، وعدم الرهبة في المطالبة وبذل النصيحة، ومنها حرية التعليم وحرية الخطابة والمطبوعات وحرية المباحث العلمية، ومنها العدالة بأسرها حتى لا يخشى إنسان من ظالم أو غاضب أو غدار مختال، ومنها الأمن على الدين والأرواح، والأمن على الشرف والأعراض، والأمن على العلم واستثماره"(ص252).

فرضيات أخرى لتفسير الفتور

- دور طرق الصوفية المغالية وانتشار السحر والتدليس والشعوذة.
- دور العلماء الرسميين أو"الجهلة المعممين".

نلاحظ في مخطط الكواكبي للجلسات وفي توزيع الكلام على المشاركين وتحميل المتداخلين وجهات نظر وفرضيات مختلفة ـ حرصه الشديد على إغناء الحوار بجدلية عميقة لا تكل من استنباط الأفكار من بعضها بعضا، ومن استدعاء الأسباب في حلقات متداخلة ومتكاملة، وكما لاحظنا في تداعي الإجابات بدءاً من مسألة الدين إلى مسألة الزهدية إلى دور الأمراء والفساد السياسي إلى الحكم المطلق إلى النزاعات الداخلية إلى فقدان الحريات السياسية والمدنية، وصولا إلى التفكير بفرضيتين تبدوان مختلفتين ولكنهما في حقيقة توزعهما بين الدولة والمجتمع يتكاملان في وظيفة واحدة هي إبعاد المسلمين عن وعي تقهقرهم التاريخي الذي بدأ منذ قرون.

يضع الفرضية الأولى(طرق الصوفية) على لسان المحقق(ص256-260) والفرضية الثانية(العلماء المعممين) على لسان المولى الرومي، (ص261-26).

وخلاصة رأي المحقق المدني في الدور المفسد "للعلماء والمدلسين وغلاة المتصوفين" أنهم في رأيه "سحروا عقول الجهلاء" واجتلبوا قلوب الضعفاء" فاستمالوا العامة بالزهد الكاذب والورع الباطل والتقشف الشيطاني وبتزيينهم لهم رسوماً تميل إليها النفوس الخاملة.. " والنتيجة أن هؤلاء المدلسين"قد نالوا بسحرهم نفوذاً عظيماً، به أفسدوا كثيراً

في الدين، وبه جعلوا كثيراً من المدارس تكايا للبطالين الذين يشهدون لهم زوراً بالكرامات المرهبة، وبه حولوا كثيراً من الجوامع مجامع للطبالين الذين ترتج من دوي طبولهم قلوب المتوهمين، وتكفهر أعصابهم فيتلبسهم نوع من الخبل يظنونه نوعاً من الخشوع، وبه جعلوا زكاة الأمة ووصاياهم رزقاً لهم، وبه جعلوا مداخيل أوقاف الملوك والأمراء عطايا لأتباعهم..(ص259).

أما المولى الرومي، فيعرف حال "العلماء الرسميين" بأنهم هم المقربون من الأمراء على أنهم علماء وارتباط القضاء بهم، فإن هؤلاء المتعممين في البلاد العثمانية كانوا اتخذوا لأنفسهم قانوناً سموه "طريق العلماء" وجعلوا فيه من الأصول ما أنتج منذ قرنين أن يصير العلم منحة رسمية تعطى للجهال حتى للأميين، بل وللأطفال.. (ص261)، لكن الأخطر في الأمر هو في تشديده على ما يسميه "دسائس المتعممين" وأخطر ما فيها "أنهم ينفثون في صدور الأمراء لزوم الاستمرار على الاستقلال في الرأي وإن كان مضراً، ومعاداة الشورى وإن كانت سنة، والمحافظة على الحالة الجارية وإن كانت سيئة، ويلقون عليهم بأنّ مشاركة الأمة في تدبير شؤونها وحرية الانتقاد لها يخل بنفوذ الأمراء، ويخالف السياسة الشرعية، ويلقّنونهم حججاً واهنة".

ويرى المولى الرومي أنّ ثمة حالتين تسمحان بتمرير هذا التواطؤ: "جهل الأمة، وسطوة الإمارة" (ص264). ويبرز المولى الرومي حجة يدعيها أصحاب الإمارة لترك أمر الإصلاح السياسي والإداري ومواجهة من يعترض على سياستهم من الدول الأجنبية، يقول: "الأمر أنّ أولئك الأمراء يقتبسون من هذه الحجج ما يتسلحون به في مقابلة من يعترض على سياستهم من الدول الأجنبية، بقولهم: "إنّ قواعد الدين الإسلامي لا تلائم أصول الشورى ولا تقبل النظام والترقيات المدنية "وأنهم مغلوبون على أمرهم، ومضطرون لرعاية دين رعاياهم، ومجاراة ميل الفكر العام"(ص263). وبسبب سيطرة هؤلاء المتعممين كما يرى المولى الرومي عمّ الجهل واستأثر الجهلاء الفاسقون بمزايا العلماء العاملين وهكذا فسد العلم وقل أهله، فاختلت التربية الدينية في الأمة، فوقعت في الفتور وعمت فيها الشرور(ص263).

- **فرضية إهمال العلوم الرياضية والطبيعية في الثقافة الإسلامية:**

في سياق الحديث عن فكرة فساد العلم وقلة أهله تثار فرضية إهمال العلوم الرياضية والطبيعية، إذ يتدخل الرياضي الكردي مضيفاً على كلام المولى الرومي أنّ العلم ليس هو علوم الدين بل هو أيضاً العلوم الرياضية والطبيعية، فهذه العلوم أهملها المسلمون، فاندرست كتبها وانقطعت علاقتها فصارت منفرا منها، على حكم "المرء عدو ما جهل" بل صار المتطلع إليها منهم يُفسّق ويُرْمَى بالزيغ والزندقة، على حين أخذت العلوم تنمو في الغرب، وعلى مرّ القرون ترقت وظهر لها ثمرات عظيمة في كافة الشؤون الأكاديمية والأدبية، حتى صارت كالشمس، لا حياة لذي حياة إلاّ بنورها، فأصبح المسلمون مع

شاسع بعدهم منها محتاجين إليها لمجاراة جيرانهم، احتياجاً يعمّ الجزئيات والكليات: من تربية الطفل إلى سياسة الممالك، ومن استنبات الأرض إلى استمطار السماء، ومن عمل الإبرة والقوارير إلى عمل المدافع والبوارج، ومن استخدام اليد والخمار إلى استخدام البرق والبخار(ص264). والحاصل أنّ تقصير العلماء الأقدمين، واقتصار المتأخرين، وتباعد المسلمين إلى الآن عن العلوم النافعة الحيوية جعلتهم أحط بكثير عن الأمم، ولا شك أنّه إذا تمادى تباعدهم هذا خمسين عاماً أخرى، تبعد النسبة بينهم وبين جيرانهم كبعدها ما بين الإنسان وباقي أنواع الحيوان، فبناءً عليه يكون ناموس الارتقاء هو المسبب لهذا الفتور، كما قال –تعالى-:(قل هل يستوي الذين يعلمون والذي لا يعلمون)(سورة الزمر الآية 9).

- **فرضية نسيان حكمة تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج**

على أن الحديث عن "المتروكات" أي ما هو غائب في الثقافة الإسلامية المعيشة يفسح المجال لطرح ظواهر أخرى من هذه المتروكات، فيحمل الكواكبي للسعيد الانجليزي وهو مواطن بريطاني دخل الإسلام، وجهة نظر ترى في إهمال أشكال الاجتماع المدني وأبرزها المنتديات والساحات واللقاءات الثقافية والمسارح والتظاهر وتبادل الآراء سبباً للفتور، ويستعرض السعيد الإنجليزي أمثلة من الحياة المدنية الغربية لتأكيد وجهة نظره في حين يذكر المجتمعين أنّ "المسلمين قد نسوا بالكلية حكمة تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج(268) وأهملوا استعمال تلك الوسائل الشريفة المؤسسة عندهم للشورى والمفاوضات والتناصح والتداعي"(ص269). وهنا يتدخل الإمام الصيني ليقول: إنّ هذه أشبه بالعوارض، وليس بالأسباب، وفي رأيه أن سبب الفتور العام هو استحكام الاستبداد في الأمراء شيمة وتكبراً وترك أهل الحل والعقد والاحتساب جهلاً وجبانة(ص271).

- **جملة الأسباب:**

في الاجتماع السابع يقدم السيد الفراتي "الذي هو الكواكبي نفسه"، ملخصاً وافياً لجملة الأسباب التي ذكرت على ألسنة المتداخلين ويوزعها على أنواع ثلاثة:

النوع الأول: الأسباب الدينية: يعددها بثلاثة وعشرين سبباً، منها تأثير عقيدة الجبر في أفكار الأمة، تأثير فتن الجدل في العقائد الدينية، تشديد الفقهاء المتأخرين في الدين خلافاً للسلف، تهوين غلاة الصوفية الدين وجعلهم إياه لعباً ولهواً، اعتقاد منافاة العلوم الحكمية والعقلية للدين، الاستسلام للتقليد وترك التبصر والاستهداء، التعصب للمذاهب ولآراء المتأخرين، العناد على نبذ الحرية الدينية(ص318).

النوع الثاني : الأسباب السياسية ومنها السياسة المطلقة، تفرق الأمة إلى عصبيات وأحزاب سياسية، حرمان الأمة من حرية القول والعمل، وفقدانها الأمن والأمل، ميل الأمراء للعلماء المدلسّين، وجهلة المتصوفين، فقد قوة الرأي العام بالحجر والتفريق، إصرار أكثر الأمراء على الاستبداد...

النوع الثالث : الأسباب الأخلاقية: ومنها استيلاء اليأس، الإخلاد إلى الخمول، فساد التعليم، فقد قوة الجمعيات وثمرة دوامها، ترك الأعمال بسبب ضعف الآمال، إهمال طلب الحقوق العامة جبناً وخوفاً، (ص319).

ثم يفرد السيد الفراتي أسباباً مباشرة تتعلق بالسياسة والإدارة العثمانيتيْن هي منها:

- § عدم تطابق الأخلاق بين الرعية والرعاة.
- § الغرارة أي الغفلة عن ترتيب شؤون الحياة.
- § الغرارة عن لزوم توزيع الأعمال والأوقات.
- § الغرارة عن الإذعان للإتقان.
- § ترك الاعتناء بتعليم النساء.
- § الخور في الطبيعة، أي سقوط الهمة.
- § الاعتزال في الحياة والتواكل. (ص323).

3 – في إعادة النظر بالرؤى والمواقف واقتراح التوجهات في صيغ العمل في مجالات الدين والسياسة والعلم:

مهما كانت الأسباب فيما آلت إليه أوضاع المسلمين في الفترة التي كتبت فيها نصوص "أم القرى" كان اللافت في تشديد كل مداخلة على نوع معين من الأسباب، هو حرص الكواكبي على توزيع الأدوار والوظائف وحقوق المعرفة على متخصصين ينتمون لا إلى أقطار ومراكز إقليمية متنوعة في العالم الإسلامي فحسب، بل إلى وجهات نظر ومذاهب ومناهج متنوعة أيضاً على أن هذا التنوع ينحو في الجدل المتداخل بين الشخصيات المتصورة إلى تكامل مركزي في الأطروحات حيث يلعب المكان والمناسبة (أي مكة في موسم الحج) دوراً مؤثراً في عملية التقارب وفي الشعور والالتزام بالمسؤولية وتضمين الكلام في ذكر الأسباب أفكاراً تتعلق بطرائق العلاج والعمل للخروج من حالة الوهن والضعف والفتور. فكل مداخلة في تحليل الأسباب تحمل توجُّها ضمنياً أو صريحاً نحو صيغة حل أو رؤية أو موقف، على أن الكواكبي يحمل بعض المداخلات، كما يضيف ملحقاً أو ذيلاً أو حواراً حصل لاحقاً، ليشير إلى موقف ممكن أو رؤية لعمل محتمل، أو إلى منهج في النظر ضروري، ومن هذا المنظور يمكن قراءة مداخلة "المجتهد التبريزي" أو الحوار بين "الأمير والصاحب الهندي".

· فمن أجل تقيم رؤية لتجاوز التعصب المذهبي في عالم الإسلام، والذي كان قد أدى في التاريخ الإسلامي إلى فتن يجب التفكر في تحويل اختلاف الأئمة إلى رحمة، يقول المجتهد التبريزي: "نعم إنّ اختلاف الأئمة يكون رحمة إذا أحسن استعماله، ويكون نقمة إذا صار سبباً للتفرقة والتباغض" ومن أجل أن يكون رحمة يطلق الكواكبي على لسان

المجتهد التبريزي فكرة جواز انفتاح المذاهب الفقهية الاجتهادية على بعضها، حيث يجوز للمسلم أن يقلد مذهباً آخر غير مذهبه في بعض الأحكام دون أن يسمى هذا "تلفيقاً" بالمعنى السلبي(ص313-314).

· ومن أجل تقديم رؤية اجتهادية للإسلامية السمحاء المعاصرة، ينقل لنا الكواكبي على لسان الخطيب القازاني حواراً دار بين مفتي قازان ومستشرق روسي اعتنق الدين الإسلامي، ويبدوأن المستشرق الروسي كان ملماً بعلم الكلام وأصول الدين وعلم أصول الفقه في جدله مع المفتي، فيدعوإلى ترك الأمور الخلافية بين الفقهاء المتأخرين لأنها من نتاج التشدد والتشويش، وإذ يرى أن الله ترك للمسلمين، بعد اكتمال الدين وإتمام النعمة في الهداية، "الخيار على وجه الإباحة في باقي شؤونهم" لا سيما الحياتية، يدعوهم ليوفقوها على مقتضيات الزمان" يقول: "إذا أتيتم أكثر أعمالكم الحيوية باطمئنان قلب بإباحتها، يكون خيراً من أن تأتوها وأنتم حيارى لا تدرون هل أصبتم فيها أم خالفتم أمر الله، فتعيشون وأفئدتكم هواء تحاذرون في الدين شؤم المخالفة، وفي الآخرة عذاباً عظيماً، وليس هذا من مخافة الله التي هي رأس الحكمة (..) بل هذا الارتباك في الرأي والاضطراب في الحكم ونتيجة ذلك فقد الحزم والعزم في الأمور (ص310).

· ومن أجل تقديم برنامج سياسي أوخطة عمل مستمدة من جملة الأفكار التي حملتها مباحث الاجتماع ومذكراته، ينشر الكواكبي ملحقاً في الكتاب، هوعبارة عن رسالة حوار بين "صاحبه الهندي" وأمير يصفه أنه من "أعظم نبلاء الأمة ورجال السياسة" وكان "الصاحب الهندي" على ما يذكر – الكواكبي –قد أطلع الأمير على مذكرات جمعية أم القرى، واستطلع رأيه فيها، فكان للأمير– بصفته السياسية وموقعه في القرار آراؤه، وهذه الآراء تستوقف الباحث في عدد من المسائل:

§ تستوقف في إعطاء بعد سياسي لأطروحات الإصلاح الديني والإصلاح الأخلاقي والتعليمي، من خلال التواصل مع الخبرة السياسية والإفادة منها في الخطط والبرامج واتخاذ القرار.

§ على أن هذا البعد السياسي لا يعني – في المنظور الذي يحمله الكواكبي، ويحمله لنشاط "جمعية أم القرى" التي جرى تأسيسها وإطلاق عملها في اجتماع مكة تطابقاً وتدامجاً بين العمل الثقافي والعلمي والديني من جهة، والعمل السياسي من جهة أخرى، فثمة تمييز بين طبيعة كل من العملين دون فصل قاطع، هذا التمييز يستوقف أيضاً في دلالات التعرف على أخلاقيات كل من العالم وكل من السياسي. وهذه الأخيرة أضحت جزءاً –كما يعرف علماء اجتماع المعرفة اليوم– من إشْتكال معرفي، هوحقل بحث دائم لدى علماء الاجتماع والسياسة في الغرب(تراجع مثلاً أعمال ماكس فيبر وبورديوفي أخلاقيات العالم والسياسي) وكان البحث في هذا الحقل قد بدأ –منهجياً– مع ابن خلدون في الحضارة الإسلامية ولكنه انقطع فيما بعد ليصير إلى الدمج الوظيفي والمعرفي بين الدين والسياسة وليقتصر مفهوم العلم على علوم الدين فتغيب الفلسفة والعلوم الوضعية، بما فيها

علم السياسة، ولتصبح السياسة والملك "استقواء" عصبيا بالدين، على حد تعبير ابن خلدون، لا استهداء بقيمة وأخلاقياته كما يحسن أن يكون.

وللتوضيح نستعير هنا جزءاً من الحوار بين "الصحاب الهندي، والأمير: يستطلع الصحاب الهندي الأمير بسؤال: "يظهر أنّ أصحاب الجمعية ليس بينهم بعض من السياسيين المحنكين، فلووجد ربما كانت تأتي المقررات أكثر إحكاماً..؟ (ص359).

لا شك أنّه قد مضى وقت طويل على هذه المقترحات أو"القواعد" كما يسميها الكواكبي، حيث إنّ التطورات والتحولات في الأحداث أولاً وفي المفاهيم والذهنيات ثانياً قد تجاوزت الأطروحة التي تمحورت حول فكرة الخلافة التي أقلقت العالم الإسلامي في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين؛ إذ تأسست دول في العالم الإسلامي استمدت شرعيتها من مفهوم السيادة على إقليم محدد. بعد إلغاء الخلافة في تركيا، ومن مبررات التعبير عن مصالح وتطلعات الجماعة الوطنية في هذا القطر أوذاك، ومن ضرورات الانتظام في مسار التحولات الدولية وما انبثق عنها من قواعد عامة في القوانين الدولية ومواثيق الأمم المتحدة، مع الاحتفاظ بهوية المجتمعات الإسلامية لناحية دينها وثقافتها.

على أن بعض أطروحات الكواكبي المتعلقة بقواعد النهضة الإسلامية، ومن بينها هيئة الشورى العامة التي من مهماتها فتح باب النظر والاجتهاد تمحيصاً وتيسيراً للدين وسد أبواب الحروب إتباعا لمقتضيات الحكمة الزمانية على حد تعبيره، لا تزال تملك مبررات طرحها حتى اليوم، وإن اختلف الشأن التنظيمي لها وجدول موضوعاتها بعد مرور أكثر من قرن على طرحها. كذلك فإن التوجه المنهجي والمعرفي للسلوك السياسي والسلوك الديني، والسلوك العلمي والثقافي، والذي يدعوإليه الكواكبي على قاعدة التمييز بين مواقع وأدوار القائمين والمعبرين عنها، (أي بين مواقع العالم والسياسي وأدوارهما) لا يزال يحمل كل أسباب مسوغاته، بل إنّ مسوغاته ازدادت في المراحل المتأخرة والراهنة إلحاحاً مع تفاقم ظاهرة الحزبية الإسلامية السياسية والأصوليات الدينية في كل أنحاء العالم، إذ إنّ ظاهرة استخدام الدين في تمكين الملك أوفي الاستقواء السياسي للوصول إلى السلطة هي الظاهرة التي جرى نقدها في أم القرى، على قاعدة تفكيك التجربة السياسية في التاريخ الإسلامي ولا سيما التجربة التركية – العثمانية التي يشدد الكواكبي على تناولها تناولاً نقدياً للخروج من أسر الذهنيات والطبائع التي كونتها في المجتمعات الإسلامية، والتي يدعوها الكواكبي في كتابه الآخر "طبائع الاستبداد". إن ما يدعوإليه الكواكبي منهجياً ومعرفياً على مستوى العلاقة بين المعرفة الدينية والمعرفة العلمية الوضعية والممارسة السياسية هوالفصل النسبي المؤدي إلى التكامل في النتائج والوظائف. وإنّ "جمعية أم القرى" واجتماعاتها، ونظامها الداخلي، وأهدافها ووسائلها من أجل تحقيق "النهضة الإسلامية" هي مجرد النموذج أومثال يريد الكواكبي أن يعممه على أقطار العالم الإسلامي ومجتمعاته، وبصيغة جمعيات أوأكاديميات، أومراكز أبحاث. ولعل اختيار مكة المكرمة للأسباب التي عرضنا لها في المدخل العام يعطي المثال المقترح صدقة في القول من خلال إيحاءات الأصول المقدسة، وفاعلية في العمل الجماعي، من خلال استقطاب

فريضة الحج وأخلاقياتها، وإشعاعاً في النشر والتعميم من خلال قوة المنطق والعقل ووسيلة الحوار الثقافي وآدابه.

****

*) مفكر وأستاذ الإسلاميات والتاريخ الحديث -الجامعة اللبنانية-.